مملكة ماري السورية (٤)

مملكة ماري العمورية

1920 . 1760 ق.م

د.بشار محمد خليف

باحث في تاريخ العالم العربي

دمشق — الجمهورية العربية السورية

Khleif200@hotmail.com

جملة من المعطيات سوف نستند عليها في مناقشتنا لمملكة ماري في الألف الثاني قبل الميلاد:

أولها: أنه مع الولوج إلى عالم الألف الثاني قبل الميلاد ، سوف نشهد مرحلة الحسم في ترجيح كفة الفاعلية الديمغرافية العمورية الكنعانية مقابل اضمحلال وذوبان الفاعلية السومرية في المتحد المشرقي الأتم. ويعتبر اضمحلال الفاعلية السياسية السومرية كناتج طبيعي للتطور في حركة تاريخ المجتمعات المشرقية لصالح تكامل إشراطات انبثاق الفاعلية العمورية الكنعانية والتي كانت ومنذ ما قبل منتصف الألف الثالث تبرز وجودها ، حتى تكامل مع مطلع الألف الثاني.

ثانيها: أن الانتقال من عالم الألف الثالث إلى الألف الثاني قبل الميلاد ، شهد انسياباً وتطوراً طبيعياً في مساق حركة التاريخ المشرقي ، فتّم انتقال الحكم من السلالات السومرية المتأخرة إلى السلالات العمورية الكنعانية ضمن استمرارية حضارية تطورية طبيعية. وكان هالدار قد أشار إلى أن الفاعلية العمورية أخذت بالتصاعد التدريجي منذ الألف الثالث وصولاً إلى تأسيسها للممالك العمورية الكنعانية مع مطلع الألف الثاني. مع الإشارة هنا إلى أن هذه الفاعليات الديمغرافية لا تُعبر عن هوية بقدر ما هي في مجموعها أرومات منبثقة عن جذر مشرقي واحد أساسه التمازج والتفاعل بين أروماته المختلفة. ومن هذا الجذر المشرقي من سكن السهوب والأودية وهم من أطلق عليهم اسم " العموريون" ومنهم من سكن المناطق العالية والمرتفعات بحيث أطلق عليهم اسم " الكنعانيون ". إذن المسميات أساسها بيئي جغرافي وربما اعتقادي وليس إثنياً أو عنصرياً.⊗

ثالثها: أن ملوك ماري في الألف الثالث قبل الميلاد ، كانوا يحملون أسماء عمورية ، وكانت ماري تشكل المحطة الأساسية للتواجد العموري والبوابة الأولى للعبور العموري نحو الجناح الرافدي. إذن شكّلت ماري العاصمة الحقيقية للعموريين.

رابعها: تنبغي الإشارة إلى دلالة هامة تُعنى بالمنحى اللغوي في اللهجة الكنعانية - العمورية ، حيث أكدت الأبحاث اللغوية على ظهورحرف الضاد ، كما ظهر حرف الضاد في لهجة إبلا سابقاً العربية بما يزيد على الألفي عام ، ما يعطي دليلاً على أن الجذور التاريخية للغة العربية تعود إلى الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد في المشرق العربي.

خامسها: أن الانطلاقة الحضارية لمملكة ماري في الألف الثاني قبل الميلاد لم تأتِ من فراغ ، لا بل إن حركة التاريخ لهذه المملكة في الألف الثالث عموماً ، ثم فترة الفاعلية التاريخية لمدينة أور في الثلث الأخير من الألف الثالث ، شكلت الأرضية والبنية التحتية الضخمة التي استفادت منها مدينة / مملكة / ماري العمورية. بحيث أن هذه الفترة شكّلت قاعدة اقتصادية ضخمة أمكن لماري الاستفادة منها وعبرها للتعبير عن فعلها الحضاري.

وهنا لا بأس من الوقوف على واقع المشرق العربي مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، والذي على ما يبدو شكّل الأساس الديمغرافي . الحضاري لحياتنا المعاصرة في المشرق العربي.

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

بشار محمد خليف ، مملكة ماري السورية: مملكة ماري العمورية ١٩٢٠- ١٧٦٠ ق.م.- دورية كان التاريخية.- العدد الحادي عشر ؛ مارس ٢٠١١. ص ٧٣ — ٨٣.

(www.historicalkan.co.nr)

⊗ للاستزادة يمكن الرجوع إلى كتاب د. محمد بهجت القبيسي .فقه اللهجات العربيات .دار شمأل.

المشرق العربي في الألف الثاني قبل الميلاد

مع 2008 ق.م حيث انتهت فاعلية مملكة أور ، عانى المشرق العربي من فراغ سياسي لم تملؤه أي فاعلية تاريخية لمدينة من مدنه ، وذكرنا أن سبب سقوط مملكة أور كان بسبب زيادة الفاعلية الديمغرافية العمورية / والتي شكلت مدينة ماري بوابتها / وكذلك الهجوم العيلامي عليها. وبالفعل فقد أبانت النصوص العائدة لتلك الفترة عن زيادة واضحة في الأسماء العمورية. ونتيجة لهذه الفاعلية الديمغرافية العمورية ، وازديادها ، كان لا بد من أن تُعبّر عن نفسها بعد اكتمال شروط انبثاق الحضاري والتاريخي وهذا ما كان ، حيث سنشهد مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد نشوء ممالك عمورية كنعانية على مدى مدن المشرق العربي من بابل إلى آشور وماري وكركميش ويمحاض وإبلا وقطنة وجبيل ودان وحاصور ومجدو اضافة إلىإسين ولارسا وأشنونا.

كما يلاحظ في هذه الفترة أن مدن الجنوب الغربي من المشرق/فلسطين / قد نشطت وانتشرت من جديد/ تبعاً للظروف التاريخية والمناخية / بحيث أصبحت أمام علاقات حياة جديدة مع المشرق العربي ومصر. وتشير الوثائق المصرية العائدة لتلك الفترة على أن هناك عشرات من دويلات المدن الكنعانية مثل ، حاصور . عسقلان . شكيم . القدس ، بحيث كانت تدور في فلكها الحضاري التاريخي المُتبدي في العمق المشرقي العربي.

وهذا شأن مهم في مسار بحثنا حيث أن العلاقات بين مملكة ماري وحاصور كانت قوية ولا سيما التجارية. وبشكل عام وطالما كان ثمة غياب للوعي الاتحادي بين مدن المشرق ، فإننا سنبقى في هذه الفترة أمام صراعات دول . مدن فيما بينها ، أساسها البعد المصلحي الكامن في الحياة الاقتصادية والتجارية والملاحية. وطبعاً إن هذا لم يكن يمنع من قيام تحالفات بين المدن ، لكنها تحالفات فرضتها الظروف الموضوعية وليس ما فرضها وجود وعي اتحادي بين هذه المدن.

مع الإشارة هنا إلى وجود نوع من الوعي الأشمل لدى بعض الحكام ، الذين سعوا وبقوة السلاح إلى فرض حالة التوحيد المهم من الناحية الاستراتيجية ، لكنه لم يأتِ استجابة للواقع الاجتماعي — الاقتصادي — الروحي لحاجة المدن آنذاك وهذا ما أدى إلى انفراط عقد التوحيد هذا ، ولا سيما عند شمشي أدد حاكم آشور وحمورابي حاكم بابل.

أيضاً يجدر الذكر أن إبلا والتي دمرها نارام سن في حوالي 2250 ق.م ، عادت ولملمت جراحها ، وعاودت تأسيس نفسها من جديد مع سلالة الحكام العموريين الكنعانيين مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. ولكنها لم تكن بسوية إبلا في منتصف الألف الثالث ، بحيث أنها الآن أصبحت محدودة بين ماري في الشرق ، وقطنة في الجنوب ويمحاض في الشمال. وهكذا نتبين أنها أضحت أقل نفوذاً ومساحة وهذا يعود ويدل على ضعف في بنيتها الاقتصادية وأداؤها التجاري ، ما ينعكس على واقعها السياسي تالياً.

ووسط كل هذا كان على ماري أن تُثبّت أقدامها وسط هذا المشرق ، الذي يعاني من تضارب المصالح بين مدنه ما يصل بها إلى الحروب والنزاعات ، بالإضافة إلى الصراعات التقليدية مع القبائل البدوية المغيرة على المدن وإهلاكها ونهبها.

مملكة ماري العمورية

بعد انتهاء فاعلية مملكة أور في حوالي 2008 ق.م ، تشير المعطيات التاريخية إلى احتمال وجود سبعة حكام في ماري حكموا في الفترة بين 2015 . 1920 ق.م. وربما أن الحكم انتقل من أسرة حكام الشكاناكو في ماري إلى أسرة حاكمة أخرى عرف منها يجيد ليم وهو أول حاكم عموري لمدينة ماري ، ثم ابنه يخدون ليم الذي حكم بين 1825 . 1810 ق.م.[1]

ويبدو أن سلالة يجيد ليم قد نشأت في مدينة ترقا قبل وصولها إلى ماري ، حيث أن ترقا أُسست مع بداية الألف الثالث قبل الميلاد وقد كانت تتبع فاعلية ماري آنذاك وكان لها أهمية اعتقادية ، واحتفظت بوظائف سياسية في وادي الفرات الأوسط في الألف الثاني إلى جانب وظيفتها الأولى.⊗ وتشير المعطيات إلى مساهمتها في تأسيس وتنظيم النشاط والفاعلية الاقتصادية لمدينة ماري ، حيث تحولت ترقا إلى أحد المراكز الأساسية لمقاطعات مملكة ماري. وإن كان سيد الأرباب في مدينة ماري هو الإله دجن ، فإن ترقا كانت موصوفة على أنها مدينة عبادة هذا الإله عبر معبده فيها.

ويذكر بوتشيلاتي أنه عثر في محفوظات ماري على أكثر من 200 رسالة ، مرسلة من ترقا إلى البلاط الملكي في ماري. كما أن موقع ترقا أبان عن وجود أقدم رقيم مسماري يعود إلى حوالي 1900 ق.م حيث يتحدث عن غياب عدد من العمال لأسباب صحية.[2] الجدير ذكره هنا ، أنه إبان سقوط ماري وتدميرها في حوالي 1760 ق.م ، انتقلت الفاعلية الحضارية التاريخية إلى ترقا ، التي أصبحت عاصمة حوض الفرات الأوسط وحوض الخابور الأدنى حوالي 1760 . 1600 ق.م.

ويشير بوتشيلاتي إلى أن مساحة ترقا آنذاك كانت تعادل في حجمها مساحة مملكة بابل طيلة تاريخها.[3] ولعل ما يشير إلى أن سلالة يجيد ليم هي من ترقا ، أنه وبعد سقوط ماري يُعتقد أن العائلة المتبقية من سلالة يجيد ليم عادت إلى موطنها الأصلي في ترقا.⊗ وطالما أن يجيد ليم هو من سلالة عمورية ، فلابد من تتبع جذورها للوقوف على طبيعة وتفاصيل الصراعات التي نشأت واحتدمت مع نشوء هذه المملكة العمورية.

وقد ذكرنا سابقاً أن العموريين ساهموا في إسقاط سلالة أور الثالثة ، ثم أنشأوا سلالات حاكمة في مدن المشرق العربي مع مطلع الألف الثاني بحيث أنهم تمكنوا من طبع كامل المشرق العربي بطابعهم العموري المستند على الجذور الأكادية . السومرية. ويبدو أن فعاليتهم امتدت حتى سوزا في جنوب ايران ، وحتى بحيرة اورمياخ في الشمال. وكانوا ينقسمون إلى فرعين قبليين أساسيين:

.بني يمينا / أبناء جهة اليمين أو الجنوبيون /.

.بني سمأل / أبناء جهة الشمال أو الشماليون /.

وتؤكد المعطيات على أن عائلة يجيد ليم هي من بني سمأل ، وكذلك العائلة العمورية الحاكمة في حلب/يمحاض. كان بنوا سمأل قد حلّوا

⊗ انظر كتاب معرض الآثار السورية .أوليفيه رووه .ترقا / تل عشارة 1996 دمشق.

⊗ تشير الباحثة ماريلين كيللي بوتشيلاتي إلى العثور في ترقا على لوحة تتضمن مشهداً طقسياً ، وهي لوحة بارزة ومصبوبة ، وفي إشارة لعمق العلاقة بين ماري وترقا تشير الباحثة إلى العثور على لوحة مماثلة في ماري صنعت بنفس القالب الذي صنعت منه اللوحة الترقاوية. انظر .تمثال والواح فخارية من ترقا .الحوليات السورية العدد 34.

في الجزيرة العليا بشكل خاص ، حيث تفرعوا إلى بطون صغيرة. بينما كان بنوا يمين متصفين بالجوّلان غير آبهين بالحدود السياسية حيث كانوا يجولون من ضفاف الفرات وحتى المتوسط مروراً بيمحاض في الشمال أو البادية الشامية في الجنوب.

الجدير ذكره هو أن حمورابي العموري حاكم بابل كان من عائلة عمورية تنتمي إلى بني يمين. وتشير الدراسات إلى وجود نوع من التوازن آنذاك بين القوى السياسية الرئيسية وهي:

من الجنوب إلى الشمال: حاصور .قطنة .حلب .كركميش.

ومن الغرب إلى الشرق: ماري .كالاتوم .بابل .إشنونا .لارسا.

والذي يبدو أن سلالة يجيد ليم ، بالإضافة إلى قبائل الخانيين / في شمال الفرات / عرفوا كيف يكونون الورثة الحقيقيون لعصر سلالة الشكاناكو في فترة فاعلية مملكة أور الثالثة.

ولعل جملة هذه المعطيات تضعنا أمام انطباع عن سيادة النمط القبلي ـ المديني الذي استطاع أن ينشئ سلالات حاكمة في مدن المشرق بعد فترة تفاعل وتعايش امتدت لأكثر من 500 عام في مدن المشرق. مع ملاحظة أن تمدّن هذه القبائل ، يبدو أنه ووجه من قبل المجموعات الرعوية القبلية والتي كانت تجول في بادية الشام وصولاً إلى منطقة الفرات الأوسط ، مما أثّر على تأمين خطوط التجارة النهرية منها والبرية ، كما أثر على استقرار المدن المشرقية ولاسيما ماري وهذا ما سنجد صداه في الوثائق التي تتحدث عن صراعات ضد هذه المجموعات القبلية التي تعيش على الغزو والنهب وقطع الطريق.

مناقشة لطبيعة الصراع المديني العموري مع القبائل البدوية وشبه الرعوية في مملكة ماري

لعل المتتبع لحركة الاجتماع البشري في المشرق العربي ، سيلحظ أنه ومنذ بداية عصر فجر التاريخ ، تشهد المدن المشرقية حالة من المماحكات والإضطرابات بين المدن .الدول ، في طبيعتها المدينية أو التجارية أو الزراعية ، وبين حالات الثقافة شبه الرعوية والبدوية ، التي كانت تجتاح هذه المدن فَتُخّل بالنظام المديني وطبائعه ، كما التجاري أوالزراعي. والذي يبدو بشكل عام أن ثمة دوراً للمناخ وأحواله في هذه السلبية شبه الرعوية في المستوى التفاعلي مع المدن. بالإضافة إلى وجود حالات اعتمدتْ في ركائز بقائها على السلب والنهب. فالحال الطبيعي ، هو أن هذه القبائل شبه الرعوية ، كان منها من يؤسس لعلاقات سلمية وتفاعلية مع المدن ، وهذا يتبّدى في مبادلات بالسلع بين منتجات الحياة الرعوية أو شبهها مع سلع مدينية زراعية أو حرفية. بالإضافة إلى أن التواجد القبلي البدوي حول المدن كان يشكّل في هذه الحالة عنصر أمان وطمأنينة للمدن ويسهم في حمايتها واستطلاع أحوال المحيط.

إذن ، نحن هنا إزاء حالة تفاعلية إيجابية بين ثقافتين تسهمان معاً في حركة التاريخ وحركة الاجتماع المشرقي. أما الحالة الثانية فتتبّدى في حالة سلبية من العلاقات ، أساس سلبيتها تنبع من اعتماد بعض الجماعات المرتحلة على سلب القوافل التجارية أو سرقة المواشي ، وفي حالات أخطر ، هو اجتياح للمدن وتدمير منجزها الحضاري.

والحقيقة أن وثائق المشرق العربي تحفل بذكر هذه الصراعات من ملحمة جلجامش ، التي عبَّرت فيها شخصية انكيدو عن حال الثقافة الرعوية الأولية التي ينبغي تدجينها وتهذيبها كي تفعل في الحالة الإنسانية المجتمعية بشكل إيجابي. أو في ما احتوته المناظرة السومرية / مناظرة دموزي وانكيمدو / والتي تحكي عن حالة الصراع بين الثقافة الزراعية والثقافة الرعوية. ثم في الوثائق الرافدية وعلى مدى الألف الثالث قبل الميلاد التي تصف تلك القبائل المرتحلة أو الغازية وتعيّرها بأوصاف دونية في سُلّم المدنية.

وأيضاً تذكر النصوص الأكادية ، أن الملك الأكادي شار كالي شاري ، حقق انتصاراً على العموريين في منطقة جبل بشري ، الذي يمتد في المنطقة التي تمتد غرباً من الفرات / الشمال الغربي من مدينة دير الزور / ومن الجنوب باتجاه الغرب نحو تدمر. ومعلوم أن العموريين كانوا عبارة عن قبائل شبه رعوية ترتحل في البوادي وتقارب المدن والبلدات ، وتبعاً لارتقائهم في سُلّم التفاعل الاجتماعي ، كانوا يعبّرون عن ذلك إما بالاندخال بالنسيج المديني أو رفضه ، ثم سنلاحظ في فترة فاعلية أور الثالثة في الثلث الأخير من الألف الثالث أن الاندفاع العموري في شكله القبلي السلبي تكثف وهو ما أدى بحاكم أور " شوسين " إلى إنشاء خط بري .مائي دفاعي ، ضخم ، يشمل ما بين نهر الفرات ونهر دجلة ويمتد بطول 275 كيلومتراً ، للحّد من ارتحالهم ومعالم التخريب المرافقة.

وعلى هذا نستطيع أن نقارب معالم العلاقة هذه ونشير إلى أن التواجد العموري والذي على ما يبدو يعود لمطالع الألف الثالث ، كانت تكتنفه موجات متتابعة ترتحل نحو مدن الرافدين / عبر ماري/ ، ومن هذه الموجات ما امتلكت أدوات التفاعل مع الحياة المدينية بكافة أوجهها الزراعية أو التجارية ، واستطاعت أن تمتزج وتتفاعل مع الاجتماع المشرقي السومري .الأكادي وتندخل فيه ، وهذه الفاعلية هي التي عبّرت عن نفسها في مطلع الألف الثاني عبر تأسيس سلالات حاكمة في مدن المشرق العربي.

أما تلك المجموعات العمورية التي اعتمدت في حياتها على السلب والارتزاق والنهب فهي التي شكّلت مَعْلماً سلبياً في حركة الاجتماع المشرقي وهذه التي كان يتم وصفها بنعوت سلبية ودونية. وهذه المجموعات السلبية هي نفسها التي شكّلت عنصر إزعاج دائم لمملكة ماري العمورية ، حيث تحفل نصوصها بالصراعات ضدهم.

الجدير ذكره بشكل عام ، أن طبيعة هذه الصراعات لم تكن من منشأ عنصري أو استعلائي أو إثني ، بل كان الرفض لهذه الثقافات الأولية المخربة ناتج عن عدم تفاعلها ومساهمتها في حركة المجتمع ، فإذن هو صراع ذو منشأ مصلحي ، حيث كلا الثقافتين تريد الحفاظ على مصالحها ، المدينية بما وصلت إليه من مستوى حضاري والرعوية بما تحاول أن تحافظ على بقائها معتمدة على التخريب والنهب والتدمير.

ويشير الباحث كاي كولماير في مناقشته للغزو العموري المتدرج لمنطقة الرافدين: "كان لتدفق العموريين البدو إلى مناطق الرافدين / ولاسيما في جنوبه / قد سبّب الكثير من فقد التوازن الاجتماعي . الاقتصادي .السياسي والأمني ، ما دفع ملوك سلالة أور الثالثة إلى بناء سور/حاجز في وجه العموريين ، يقال أنه بلغ 280 كيلومتراً طولاً. وهو نموذج مبكر وسابقاً لسور الصين العظيم الذي سيُبنى لغرض مشابه "[4] وفي حال أن التفاعل الايجابي كان سيد الموقف فسنجد مثلاً أنه في زمن اشبي إيرا ، نصَّب زعيم قبيلة عمورية نفسه حاكماً على مدينة لارسا الرافدية.

وعلى نفس المساق فإن اشبي إيرا ، كان قائداً عسكرياً في مدينة ماري ، ويعمل في خدمة سلالة أور الثالثة وتشير الوثائق أنه انتزع صلاحيات واسعة لمقاومة البدو ، بحيث أنه استغل مجاعة حلّتْ في

الجنوب لينصّب نفسه حاكماً على مدينة ايسين الرافدية. ونلاحظ أن مملكة ماري العمورية عانت ما عانته من غزو القبائل البدوية لها ، والعمورية أيضاً ، بما يعطي دلالة على أن الصراع هو صراع البقاء ولا يحمل أي مسببات إثنية أو غيرها. ونعود إلى كولماير في مناقشته هذه المسألة حيث يقول: "توجد نصوص كثيرة في ماري ، تتحدث عن العلاقة المتأزمة مع قبائل البدو الذين ارتبط اسمهم بسرقة المواشي ، والذين كانوا يغزون وديان الأنهار الزراعية بشكل متكرر للنهب والسلب أو يجتازونها بقطعانهم. وأهم هذه القبائل هم اليمينيون / بنويمين / والحانيون أو الخانيون.

ولم تكن العلاقات معهم بالضرورة علاقات عداوة ، ذلك لأن الحضر المستقرين والبدو الرحل يكّمل بعضهم بعضاً ، ويستفيدون من تبادل المنتجات والبضائع. فالبدو كانوا يعرضون الصوف الأجبان والجلود والحيوانات الحية والأنسجة..الخ ويقايضونها بالمنتجات الزراعية والحرفية. وكان البدو أدلاء لا يُستغنى عنهم بالنسبة إلى القوافل التجارية / لكشف مواقع الآبار والواحات في البادية / كذلك خدم البدو في جيوش الحضر كما فعل اليمينيون في جيش شمشي أدد".[5]

إذن نصل إلى استنتاج حول هذه المسألة ، بأن الصراع المديني . الرعوي كان من أسبابه الأساسية هو عدم اعتراف الثقافة الرعوية بالثقافة المدينية والسعي إلى تدميرها ، عبر عدم التفاعل والتمازج والتعايش وهذا ما سوف نلحظه في مسار الصراع المديني في مملكة ماري مع القبائل البدوية.⊗ تقول ايفا شترومنغر وكاي كولماير أن سورية: "لغنى أراضيها المزروعة ومدنها ، كانت تجذب إليها المهاجرين الكثيرين ، وتدفع البدو الرحل للاستقرار فيها. وباستمرار كانت تضم إلى السكان مجموعات بشرية جديدة تساهم في البناء والتطور الحضاري.[6]

السلالة العمورية الحاكمة في ماري

١ ـ يجيد ليم:

يعتبر إلى الآن أول ملك معروف من السلالة العمورية التي حكمتْ مدينة ماري ، وكنا أشرنا سابقاً إلى احتمال أن بين 2015 . 1920 ق.م ، كان هناك سبعة حكام في ماري. وتشير المعطيات إلى قيام حالة صراع بين ماري وترقا ، حيث استطاع ملك ماري يجيد ليم من طرد حاكم ترقا " إلا .كبكابو "⊗ وضمّ ترقا إلى فاعلية مدينة ماري ولجأ كبكابو إلى بابل.

والجدير ذكره هو أن حاكم ترقا المخلوع هو والد الملك الآشوري شمشي أدد الذي سوف يحتل ماري فيما بعد ويضمها إلى مملكة آشور. ويبدو أن ماري ومنذ هذه الفترة / كما في ازدهارها في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد / كانت تدرك أهمية منطقة مثلث الخابور / شمال شرق سورية / في ازدهارها ، " فهذه المنطقة كانت تشكّل مستودعاً للقمح ، ومنتجعاً صيفياً لقطعان الغنم بسبب طراوة مناخها ، وهذا ما يفسر تنازع مدن تلك الفترة من أجل السيطرة عليها "[7]

وتشير الباحثة مارتا لوتشياني إلى أن نصوص ماري لا تتحدث إلا ما ندر عن تربية الحيوانات والزراعة ، وإذا حدث فإنها تشير إلى وادي نهر الخابور ، وما يحيط به من مجالات الرعي الشتوية.⊗⊗ إذن منذ الآن ومع حكم يجيد ليم ، سوف نلحظ أن اهتمام مدينة ماري كي تكون مملكة قوية مزدهرة ، كان يحتم أن تسيطر على تلك المنطقة الحيوية وهذا ما سوف يستمر إلى فترة زمري ليم. وهنا لا باس من التذكير أن شرط موقع ماري كي يحقق فعله هو وجود ثلاثة محاور:[8] (الأول: محور الرافدين وما ينقصه من منتجات وأخشاب وأحجار. الثاني: منطقة الخابور وما يحيط بها من سهول زراعية خصبة ، توفر الزراعة والقدرة على الإنتاج. الثالث: محور العمق الشامي وما يوفره من أخشاب / من جبال الأمانوس / والامتداد نحو الوجه البحري المتوسطي).

ويبدو أن المحاور الثلاثة ستبقى على فعلها حتى نهاية فاعلية مملكة ماري. ولا تقدم ماري نصوصاً / إلى الآن / من عهد هذا الحاكم ، حيث أن وثائق ماري تعود إلى عهد الشكاناكو وعهود يخدون ليم وسومو يمام في أواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد. ويعد يخدون ليم الذي خلف الحكم عن والده في 1825 ق.م أول ملك من ماري العمورية يُمثل في وثائق بواسطة نصوصه الخاصة به.⊗

٢ ـ يخدون ليم:⊗⊗

مع فترة هذا الملك ، نلاحظ أن الصراعات المدينية كانت على أشدها ، ويبدو أن هذا كان يؤثر على مطامح ماري في إنشاء مملكتها ، وبالإضافة إلى دور القبائل البدوية السلبي تجاهها. ويبدو أيضاً من الوثائق أن يخدون ليم كان رجل دولة ، سعى إلى تعميق البنية التحتية للمدينة ، ومواجهة التحديات التي فرضت عليه ، بالإضافة إلى سعيه لتوسيع فاعلية مدينته.

ونعتقد أن مناقشة مملكة ماري في عصر هذا الملك لا تكتمل إن لم نضئ على واقع المشرق العربي في تلك الفترة ، ولا سيما لجهة المدن الفاعلة تاريخياً ، لأن هذا يرتبط بمجمل حركة التاريخ في تلك الفترة. وكنا ذكرنا سابقاً أن السلالات الحاكمة العمورية الكنعانية تمكّنت من حكم مدن المشرق العربي مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ويمكننا استعراض واقع هذه المدن السياسي:

⊗ في هذا السياق ، وبمقاربة لمجتمع مدينة تدمر في القرون الميلادية الثلاثة الأولى ، نجد أن نفس هذه المعايير تنطبق عليها ، رغم مرور أكثر من 2000 عام. فالقبائل العربية التي أحاطت بتدمر وفي البادية الشامية ، استطاعت أن تتفاعل وتتمازج مع مجتمع تدمر وبالتالي امتلكت حكم تدمر ، في حين أن القبائل ذات الثقافة الرعوية جداً والأولية رفضت هذا التفاعل ، وكان ثمة صراع معها. وقد أشار لي الأستاذ خالد الأسعد/ الأمين السابق لمتحف تدمر / على أن هذه القبائل المتفاعلة كانت قبل تعرّفها على مجتمع تدمر / المديني .الزراعي / تعبد إلهاً هو شيع القوم " وصفته الأساسية أنه يكره الخمر ، ثم جاء حين اندخلت هذه القبائل في نسيج تدمر المديني والزراعي تحوّل اسم إلهها إلى " ذو الشرى" أي الشره للخمر. وهذا دليل على عمق التفاعل لتلك القبائل مع المجتمع المديني .الزراعي التدمري.

⊗ إلا كبكاكو تعني بالأكادية " الإله كوكب ".

⊗⊗ انظر .مارتا لوتشياني .حوض الخابور الأدنى في عصر البرونز الوسيط. وثائق الآثار السورية 2002.

⊗ انظر هورست كلينغل .تاريخ سورية السياسي .دار المتنبي. دمشق 1998.

⊗⊗ تتضارب الآراء حول فترة حكم الملك يخدون ليم فالدكتور علي أبو عساف يشير إلى أنه حكم بين 1825 . 1811 ق.م أي حوالي 14 عاماً / آثار الممالك القديمة في سورية / ، في حين أن دومنيك شاربان يشير إلى فترة حكمه بحوالي 17 عاماً / HISTOIRE DE MARI /. أما الدكتور عيد مرعي فيشير إلى حوالي 8 سنوات / انظر دراسات تاريخية ، العدد 27 . 28 . 1987 .يخدون ليم ملك ماري. د. عيد مرعي /.

آشور:

لم تكن مدينة آشور ذات فاعلية مهمة ومؤثرة إلا حين تولّى حكمها شمشي أدد ابن إلا كبكابو في حوالي 1815 ق.م ، واستمر حكمه حتى حوالي 1782 ق.م. ونلاحظ هنا تزامن فترة حكمه ولو لمدة وجيزة مع حكم يجيد ليم ، وكذلك مع حمورابي البابلي. وقد استطاع شمشي أدد أن يجعل من آشور مملكة يُحسب حسابها في صراعات المدن آنذاك. بحيث استطاع أن يسيطر على المناطق الواقعة إلى شرق نهر دجلة وغربه ، وكان على منافسة مع مدينة بابل ، واحتل ماري. وبموت ملك آشور ، استطاع حمورابي بابل من ضم آشور إلى فاعلية بابل التاريخية.

يمحاض/حلب:

تعتبر من أكبر ممالك بلاد الشام بعد ماري ، واستطاعت بفاعليتها التاريخية أن تمتد مملكتها من نهر الفرات شرقاً إلى المتوسط غرباً.⊗ أشهر ملوكها ياريم ليم الأول ، وحمورابي الأول وقد حكما في النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد. الجدير ذكره أن ياريم ليم الأول كان خال ملك ماري زمري ليم ، كما أن هذا تزوج من ابنة ياريم ليم الأول. كانت علاقة مملكة يمحاض قوية مع بابل وماري ، في وجه الفاعلية الآشورية ، وساهمت في إعادة عرش ماري إلى سلالة يجيد ليم / زمري ليم / بعد الاحتلال الآشوري لها. وتذكر وثائق ماري أن مملكة يمحاض كان يتبعها عشرون ملكاً (20 مدينة) أيام حكم ياريم ليم.

إبلا:

منذ أن دمرها نارام سين الأكادي في حوالي 2250 ق.م ، تراجعت إلى فاعلية مدينة تعيد تنظيم أحوالها ، ومع هذه الفترة حكمتها سلالة عمورية كنعانية ، ولم تستطع مع هذا أن تعود إلى ما كانت عليه في حوالي منتصف الألف الثالث من ازدهار وقوة ومنعة.

قطنة:

كانت لها علاقة جيدة مع الملك عمو تقيل وهذا معاصر لحمورابي بابل وزمري ليم ملك ماري. وأثناء الاحتلال الآشوري لماري ، تزوج حاكمها / يسمع أدد / ابن شمشي أدد ، من ابنة ملك قطنة ، وكانت علاقتها متينة مع ماري كما تشير إلى ذلك وثائق ماري.

بابل:

أُسست عبر سلالة عمورية .كنعانية في هذا العصر عبر الملك سومو آبوم 1894 .1881 ق.م. واشتهر من ملوكها حمورابي الذي حكم في الفترة بين 1792 .1750 ق.م. وإليه يعزى تدمير مدينة ماري وإنهاء فاعليتها التاريخية والحضارية.

كركميش:

امتلكت علاقات جيدة مع ماري ، في فترة وقوعها تحت فاعلية آشور التاريخية ، وكذلك في زمن حكم زمري ليم. واستطاعت بفاعليتها أن تسيطر على حوض الفرات والسهول المجاورة له. وشملت وثائق ماري على رسائل متبادلة بين ملوك كركميش وماري ، في القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

⊗ في البدء انتابت العلاقة بين يمحاض وماري السلبية الواضحة ثم أضحت علاقات متينة وحميمة بعدأن وعت المدينتان أن مصالحهما في علاقتهما الجيدة وتذكر وثائق عائدة لفترة يخدون ليم أن ملك يمحاض / سومو ابوخ / تحالف مع ملك توتول وملك سمّانُم ضد ملك ماري أثناء وجوده في مهمات حربية.

أوغاريت:

تشير المعطيات إلى أنها في القرن الثامن عشر ، كانت موجودة ولكن فاعليتها لم تخرج عن إطارها ، وتعطي وثائق ماري دلالات عن وجود علاقات وثيقة بينها وبين حلب وماري في القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد.⊗

إيمار:

لم تحظ هذه المدينة عبر تاريخها في الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد ، إلا بموقع انفعالي وبدرجة ثانية ، وكانت دوماً محط اهتمام فاعليات المدن الأقوى مثل ماري ويمحاض وإبلا لوقوعها على خط التجارة الدولية ، بالإضافة إلى محاولتها لتعكير استقرار المدن الأقوى ولا سيما ماري في عهد يخدون ليم ، بدفع من ملك يمحاض ، حيث كانت إيمار تحت فاعلية يمحاض.

إذن وعبر كل هذا أصبحنا بإمكاننا القول استنتاجاً ، أن المدن الأساسية في هذه الفترة والتي امتلكت إشراطات فاعليتها التاريخية ، بدأت تعبّر عن هذا ، بمعنى أن تحقق مصالحها الوجودية ، في السيطرة على طرق التجارة أولاً ، وفي ضمّ الأراضي الخصيبة لها ، وهذا هو مرتكز الصراع بين الممالك تلك الفترة ولا سيما ، ماري ، آشور ، بابل ، يمحاض. وقد لمع بين حكام تلك الممالك ، زمري ليم حاكم ماري ، شمشي أدد حاكم آشور ، حمورابي حاكم بابل ، ياريم ليم حاكم يمحاض /حلب.

أيضاً يمكننا الإشارة إلى مدن أخرى مشرقية كان لها دورها ولا سيما التجاري مثل جبيل وحاصور ومجدو ودان وكان لمدينة إشنونا الرافدية شأناً سياسياً مهماً. وبالعودة إلى حركة التاريخ في عهد يخدون ليم حاكم ماري ، نلحظ أنه واجه تحديات عديدة منها ما خرج عن مدن متحالفة ضد ماري والسعي لامتلاك فاعليتها التاريخية ، ومنها ما اختص بالعشائر البدوية. فمنذ فترة حكمه الأولى تشير المعطيات الأثرية إلى وجود تحالفات في حوض الفرات الأوسط ، أساسها تحالفان ، الأول: بين مدينة إيمار ومدينة أباتم/ التي تقع بين ماري وإيمار ، وتمر منها الطريق التجارية المنطلقة من الفرات نحو قطنة / وتوتول وسمّانُم الواقعة إلى الغرب من ماري. الثاني: وهو تحالف مواجه للأول وأساسه ماري وترقا وسكّاراّتوم التي تقع على نهر الخابور عند مصبه في الفرات. وتشهد أيضاً الوقائع السياسية في عصر يخدون ليم ، على تجمع لعشائر بني يمين لدى شيخ مدينة سمّانُم / التي تقع شمال ترقا / وكان يُدعى " لأيُم " ، ويبدو أن إيمار كانت تساعد هذه العشائر ضد مدينة ماري حيث كانت فاعلية إيمار واقعة تحت تأثير الفاعلية التاريخية ليمحاض. وقد استطاع يخدون ليم السيطرة على هذه العشائر وقتل شيخهم في حلبية ولاحق الفلول اليمينية حتى حدود يمحاض ثم سيطر على إيمار. ويشير د. أبو عساف إلى أن التحالف بين المدن المذكورة في حوض الفرات الأوسط ، لم يكن بأهداف عسكرية ، بل قام على أسس عديدة تمتد جذورها إلى الألف الثالث قبل الميلاد.[9]

وبالعودة إلى مدينة سكاراتوم ، فإن المعطيات تشير إلى " أن هذه المدينة بالإضافة إلى مدينة قاطونان ، كانتا تسيطران على حوض الخابور الأدنى وتديران شؤونه. ويعتقد أن سكاراتوم تقع في تل أبو حائط ، وكانت تحكم قبضتها على القسم الجنوبي الأكبر من حوض

⊗ هورست كلينغل .تاريخ سورية السياسي .1998 .النسخة العربية.

الخابور الأسفل وعند التقاء رافدي الخابور ، بل على القسم الغربي أيضاً الذي يشمل منطقة واسعة من حوض الفرات نفسه. ويخضع لهذه المنطقة أكثر من خمسين موقعاً جغرافياً يقع 20٪ منها ، على امتداد مجرى الخابور والباقي على نهر الفرات.

وتشير أسماء الأماكن في منطقة الفرات التابعة لسكاراتوم إلى مدن وقرى لعبت دوراً بارزاً على صعيد الطرق التجارية الموصلة إلى مدينة ماري في الغرب ، حيث يتم هناك تبادل البضائع والخامات الأولية. والحقيقة ، أن سكاراتوم لم تكن مركز المنطقة الوحيد بل كانت تشكّل مع ماري وترقا ، احدى أهم ثلاث مدن رئيسية في المملكة التي خضعت منذ البدء لحكم يخدون ليم. "[10]

وقد عثر في ماري على وثيقة تأسيس تضمنت قيام يخدون ليم وقد لّقب نفسه بـ " ملك ماري وتوتول وبلاد خانا " بحملة على جانبي الفرات ، حيث أسر سبعة ملوك ناوؤه وأضاف ممتلكاتهم إلى ماري ، وقطع الأدغال من جانبي النهر وبذلك ضمن السلام لبلاده. ونحن نعتقد أن تعبير الملوك مبالغ فيه ويمكن أن يكونوا شيوخ قبائل أو حكام بلدات صغيرة. ويذكر النص أيضاً أن يخدون ليم حصّن ماري وترقا بالأسوار والخنادق وحفر القنوات واضعاً نهاية للتقليد القائم على رفع المياه للري. وفي نهاية النص يقول: " في منطقة محرومة ، مكان عطش لم يسبق لملك أن أعطاه اسماً ، أو بنى مدينة فيه ، توفرت لدي رغبة فبنيت مدينة وحفرت خنادقها وأسميتها دور يخدون ليم وحفرت قناة أسميتها شم يخدون ليم. "[11] ويعتقد الباحث هالدار أن القناة شقت وأخذت مياهها من نهر الخابور على الرغم من أن موقع ماري قريب جداً من الجانب الأيمن للفرات ، حيث قبل ذلك كانت المنطقة مجدبة ولم تُعّمر سابقاً إلى أن جاء يخدون ليم وأنشأها. [12]

أيضاً تشير وثيقة تأسيس معبد شمش في ماري عن قيام يخدون ليم بحملة على الغرب لاخضاع مدن الشام الشمالية من الفرات إلى المتوسط وحين فشل ، يبدو أنه أقام علاقات حسنة مع ملوكها. [13] ويبدو أن قيامه بتلك الحملة لم يكن لدافع اتحادي أو ما شابه ، بقدر ما كان من أجل الحصول على الأرز والسرو والبقس والخشب ويبدو أنه أجبر السكان هناك على دفع الضرائب بانتظام لماري. ⊗ ويشير كلينغل إلى أن جيش يخدون ليم ، زحف بجوار الفرات باتجاه الأعلى حيث اتبع طريق القوافل. [14] ويبدو أن يخدون ليم كان يسعى وبقوة إلى تدعيم مملكته حيث أنه أخضع ايمار التي كانت مجالاً للسيطرة والمنافسة بين ماري ويمحاض واستطاع هذا الملك ضمها إلى فاعلية مملكته ، ولكن مع مجيء زمري ليم انتقلت لتنضوي تحت فاعلية يمحاض. وكان ليخدون ليم حلفاء وتابعون إلى الشمال من ماري. " وتشير إحدى الوثائق إلى رسالة نجده تلقاها من حاكم إحدى المدن / أبي .سامار / حيث أن مدينته مهددة من كل جانب من ملوك آشور وكركميش وأورشوم وخاشوم ويمحاض ". [15]

ويبدو أن ثمة تضارباً للآراء بين الباحثين في نتائج حملة يخدون ليم إلى الغرب والمتوسط ، حيث أشار كلينغل إلى تحقيقه لغايات اقتصادية وضرائبية ، في حين يشير د. أبو عساف إلى أنه فشل عسكرياً غير أنه أقام علاقات حسنة مع ملوك المدن تلك ، نجد أن د. مرعي يعتقد أن حملته فشلت سياسياً واقتصادياً كان ينبغي منها الحصول على أخشاب الأرز والسرو والصنوبر اللازمة للبناء. / عيد مرعي .1987 . يخدون ليم ملك ماري/. ويشير شاربان إلى أن فترة يخدون ليم كانت فترة حاسمة في تاريخ تطور ماري سياسياً وثقافياً / شاربان 1989 /.

الجدير ذكره هنا هو أن يخدون ليم تزوج بأخت ملك يمحاض/حلب. ياريم ليم ، حيث أنجبت له زمري ليم. ⊗ وللدلالة على مبلغ قوة ماري في هذه الفترة ، تشير وثيقة أرسلها أبي سمار حاكم إحدى المدن إلى يخدون ليم بقوله: " بيتي هو بيتك وأبي سمار هو ابنك "[16] وكانت دلالة أن يكون حاكم ابناً للملك في مستواها الاعتباري هو أن الملك سيد المدن ومدينته أقواها. وأيضاً ما يشير إلى قوة مملكة ماري في هذه الفترة ، هو وثيقة عبارة عن رسالة من حاكم منطقة قريبة من كركميش إلى يخدون ليم يطلب فيها مساعدة عسكرية لمواجهة ملك آشور شمشي أدد.

ويبدو أنه مع اعتلاء شمشي أدد لعرش آشور في 1815 ، وسعيه إلى تحقيق فاعلية آشور بعد اكتمال إشراطاتها ، فإن ماري بدأت تعاني من هذه الفاعلية الآشورية ، فتذكر إحدى الوثائق في فترة الملك يخدون ليم: أن شمشي أدد" أحرق حصيد البلد "[17] ويعتقد أن أفراد جيش شمشي أدد بلغ 60.000 جندياً. / فرزات .مرعي 1990 /.

ويبدو في النهاية أن اضطرابات حصلت في قصر ماري أدت إلى مقتل يخدون ليم في حوالي 1811 ق.م ، وانتقل الحكم إلى أخيه سومو يمام حيث بقي في الحكم لمدة سنتين. ثم وبعد انتصار شمشي أدد/ الذي يعتقد أنه كان وراء مقتل يخدون ليم / على تحالف قوات حلب وأورشوم وكركميش ، اتجه نحو ماري ، حيث احتلها وهذا ما أدى إلى فرار زمري ليم إلى حلب/يمحاض ، في حين تم أسر ابنتي يخدون ليم من قبل شمشي أدد وتمَّ تنصيب يسمع أدد/ ابن شمشي أدد/ حاكماً على ماري في حوالي 1795 ق.م.

وإن كان ملك آشور شمشي أدد قد مضى في توسيع مملكته بعد القضاء على حكم يخدون ليم ، بحيث استطاع إنشاء مملكة واسعة تمتد من جبال زاغروس وحتى الفرات ، فإن احتلاله لماري / عاصمة منطقة الفرات الأوسط / أدى إلى تدهور الأوضاع في تلك المنطقة وتحولت الطرق عنها إلى البادية ، غير أن هذا لم يستمر ، حيث أنه مع

⊗ تقول الوثيقة العائدة ليخدون ليم وقد نشرها جورج دوسان عام 1955 ما يلي:
" ما من ملك مقيم في ماري وصل البحر وفتح جبال الأرز والبقس ، الجبال العالية قطع أخشابها يخدون ليم بن يجيد ليم الملك القوي ، الثور البري (بين) الملوك ذهب ببراعة وقوة إلى شاطئ البحر ، لـ (إله) المحيط ضّحى ضحاياه الملكية الكبيرة ، وجنوده في وسط المحيط استحموا ، في جبال الأرز والسرو والصندل ، وهذه الأشجار هو قطعها ".
كما نقرأ أيضاً في وثائقه: " هو اكتسح كل شيء ، وأشهر اسمه ، وجعل قوته معروفة "
" هذه الأرض على شاطئ المحيط ، أخضعها ووضعها تحت أوامره وجعلها تسير خلفه ".

⊗ في مقابل قناعة معظم الباحثين على أن زمري ليم هو ابن يخدون ليم ، فإن الباحثة الإيطالية مارتا لوتشياني تشير في بحث لها إلى أن زمري ليم هو حفيد يخدون ليم وتقول: " في هذه الفترة كانت ماري تحكم من قبل يسمع أدد بن شمشي أدد ، بعد حكم الملك يخدون ، وحكمت بعد ذلك من قبل زمري ليم حفيد يخدون ليم "
انظر وثائق الآثار السورية .مارتا لوتشياني .حوض الخابور الأدنى في عصر البرونز الوسيط " ص 201 - .
وأيضاً يتحدث دومنيك شاربان عن وجود ختم يذكر " زمري ليم بن خدني أدد" بحيث أنه بناء على ذلك يمكن أن يكون زمري ليم هو أبن أخ الملك يخدون ليم ".
انظر اقتصاد مملكة ماري .علم الدين أبو عاصي .وزارة الثقافة السورية 2002 .ص 23 - .

عودة زمري ليم إلى عرش ماري سنلحظ عودة لفاعلية ماري كمملكة مزدهرة ، الازدهار الأخير. وتجدر الإشارة هنا إلى أن موقف يمحاض من احتلال شمشي أدد لماري كان لا مبالياً وحيادياً ، وجلّ ما قامت به هو استقبال زمري ليم في بلاط حلب.

وتشير المعطيات أن يمحاض لم تكن راضية عما قام به يخدون ليم من التوسع على حساب جيرانه ملك ترقا وملك توتول ، حتى أن احتلاله لإيمار أفقد مملكة يمحاض مينائها المهم على نهر الفرات. ويشير جان ماري دوران إلى أن شمشي أدد/ حسب وثائق ماري / استقر في قصر ماري بعد احتلالها. ⊗

مدينة ماري تحت الفاعلية الآشورية

1795 . 1782 ق.م

ثمة جملة من المعايير ينبغي الإشارة إليها في فترة وقوع ماري تحت فاعلية مملكة آشور:

أولها: أن شمشي أدد ، كان رجل دولة من طراز ما كان عليه شاروكين الأكادي أو لوغال زاجيزي أو ما سنراه في حمورابي بابل أو زمري ليم ماري. وإن ضمّه لمنطقة الفرات الأوسط ومن ضمنها مدينة ماري ، كان لاعتبارات مصلحية اقتصادية وتجارية وسياسية ، ولا نرى هنا امكانية النظر إلى سيطرته على مدينة ماري كنوع من الثأر والانتقام لأبيه إلا كبكابو ، حين طرده يجيد ليم ملك ماري من ترقا بحيث توجه الأول إلى بابل عبر إيمار ومنطقة الجزيرة الشامية وحوض البليخ والخابور. ويبدو أن شمشي أدد أقام في بابل ، وتوّجه بعد ذلك إلى مدينة إيكالاتوم ⊗ ، / قبل استيلائه على مدينة آشور والبدء بتحقيق مشروعه الملكي / ، حيث سيطر عليها بواسطة جماعات بدوية تحت إمرته.

والجدير ذكره ، أن مدينة آشور قبل أن يستولي عليها ، كانت تحكمها مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، سلالة حاكمة ، تشير أسماء حكامها إلى كونها سلالة أكادية ومنهم / بوزور آشور ، شاليم آخوم .. الخ / ، وتشير المعطيات إلى أن أحد حكام هذه السلالة وهو إريشوم الأول / 1900 ق.م / استطاع أن ينشئ مستوطنات تجارية آشورية في آسيا الصغرى وأشهرها كاروم كانيش/ تقع حالياً بالقرب من القيصرية/ كول تبي /. وتعطي الوثائق الآشورية التي اكتشفت في هذا الموقع ، على أن تجار آشور كانوا ينقلون القصدير والمنسوجات من آشور إلى بلاد الأناضول ويحصلون مقابل ذلك على الفضة. ⊗ وبعد استيلاء شمشي أدد على آشور ادعى أن الإله انليل هو الذي منحه السلطة وجعله ملكاً ، كون أن المُلك يأتي من الإله ، وهذا ما غلّف حكمه بالشرعية الإلهية المطلوبة آنذاك.

وهكذا ، سوف ينشيء معبداً لإنليل في آشور ، ومن ثم سوف يطلق على عاصمته الثانية الواقعة في تل ليلان / تقع في منقار البطة من الخريطة الجغرافية السورية الحالية ، أقصى الشمال الشرقي / اسم شُباط انليل / مقام الإله انليل /. وهذا الموقع كشف عن معبد وأرشيف وثائقي يزيد على الـ 1500 رقيم مكتوب بالخط المسماري وباللهجة الآشورية القديمة.

ويحتوي أرشيف ماري / الذي يزيد عن 25 آلف رقيم / على حوالي 129 رسالة أو أجزاء من رسائل ، مرسلة من الملك شمشي أدد ، كذلك حوالي 100 رسالة من ولديه يسمع أدد/ ، في اللهجة العمورية يعني الإله أدد ، سمع / وإشمي دجن / وهذا اسم أكادي يعني الإله دجن ، سمع /. كما عثر على الكثير من الرسائل لموظفي المملكة الآشورية ومن أمراء وحكام معاصرين. ⊗⊗ وقد أطلق شمشي أدد على نفسه لقب " شاركيشاتيم " أي ملك الجميع أو العالم ، فيما يشبه ترجيعاً للقب ملك الجهات الأربع.

ثانيها: لا تشي فترة وقوع مدينة ماري تحت فاعلية مملكة آشور بأي تغيّر بنيوي في حياتها ، سوى أن أسرة يجيد ليم وولده لم تعد حاكمة. فالمعلوم أن شمشي أدد هو من العشائر العمورية, وأن مدينة ماري عمورية الهوية بما يعود لما قبل الألف الثاني قبل الميلاد ، وعليه فإن هذا الأمر لا يتعدى أن يكون صراعاً سياسياً ذو أبعاد اقتصادية وتجارية. إضافة إلى شيء هام سوف ينبثق في هذه الفترة ، لا بل يعود إلى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد. فإن كانت حركة التجارة الدولية في الألف الثالث شرقية الهوى والمصالح ولا سيما في الجناح الرافدي ، فإننا الآن أمام ضعف للمراكز الآسيوية البعيدة / كالهند مثلاً / وبزوغ مراكز تجارية في المتوسط ، ويبدو برأينا أن شمشي أدد وعى هذه الناحية وهذا ما سوف نراه في حركة مملكة آشور ونظرها إلى المتوسط وعالمه ، بحيث سنشهد توجه خطوط التجارة في المشرق العربي نحو الغرب ، مع عدم انعدام التجارة نحو الشرق ، لكنها خفّت نسبة للأولى.

وفي سعي شمشي أدد لإنشاء مملكته ، كان لا بد أن يصطدم مع ملك ماري يخدون ليم ، الذي كان بدوره يسعى لتدعيم مملكته عبر السيطرة على منطقة الفرات الأوسط ، ولعل تضارب هذه المصالح ، هو ما حتّم احتلال ماري وانهاء سلالتها الحاكمة / ولو إلى حين /. حيث نصّب شمشي أدد ابنه يسمع أدد حاكماً على ماري ، وابنه الآخر اشمي دجن حاكماً على مدينة ايكالاتوم. وهنا تستوقفنا ظاهرة تشير إلى ذهنية شمشي أدد كرجل دولة ، حيث أنه اعتمد على موقع شباط انليل / تل ليلان / كي يكون عاصمته الثانية ليشرف من خلاله على أحوال الجناح الشامي من مملكته بكافة الأوجه. والجدير ذكره أيضاً أن هذا الملك ، استطاع رسم إطار سياسي يحتوي ويشمل كافة طرق التجارة الدولية ، ولا سيما في الجناح الشامي وامتداداته إلى عالم المتوسط. أيضاً ، لم تكن مملكة يمحاض/حلب تستسيغ هذا المدّ الآشوري ، واستطاعت تبعاً لفاعليتها الظاهرة ، من أن توقف ذلك المدّ لآشور عند الغرب ، كما أن أشنونا استطاعت الحدّ منه جنوباً.

وكرجل دولة ، لجأ شمشي أدد إلى استمالة قطنة الواقعة قرب حمص والواقعة على تخوم مملكة يمحاض جنوباً ، وكذلك حين وضع ابنه اشمي دجن على ايكالاتوم ، فقد كان قريباً من فاعلية أشنونا ، ومراقباً لتحركات القبائل في زاغروس وهذا ما جعل أشنونا تعترف بنفوذه. ولجهة مدينة قطنة وهي ما تعتبر الخاصرة الجنوبية لمملكة يمحاض ، فقد سعى شمشي أدد لتقوية أواصر العلاقة معها ، وهذا ما يعود على مملكة آشور بمصالح تجارية اقتصادية ، كون أن قطنة تشكّل خط تجارة دولي إلى المتوسط وعالمه. ⊗ لذا سوف نكون أمام زواج

⊗ فيصل عبد الله . دراسات تاريخية 37 . 38 . قراءة في مجلدات ماري.

⊗ مدينة إيكالاتوم: وتعني مدينة القصور ، وتقع على نهر دجلة وعلى بعد 60 كم جنوب آشور.

⊗ انظر عيد مرعي . تاريخ بلاد الرافدين . دار الأبجدية 1991.

⊗⊗ المرجع السابق.

⊗ يشير الدكتور ميشيل مقدسي في بحثه " منطقة حمص بين المتوسط وحوض الفرات الأوسط في الفترة بين 2000 . 1600 ق.م " إلى وجود ثلاث مجموعات

ملكي بين يسمع أدد / حاكم ماري / من ابنة ملك قطنة بيلتوم ، ابنة اشخي أدد حيث جاء في الوثائق / احدى الرسائل من شمشي أدد إلى يسمع أدد: " أريد أن آخذ لك ابنة إشخي أدد. السلالة الحاكمة في قطنة ، لها اسم كبير والسلالة الحاكمة في ماري لها اسم كبير أيضاً ". / عيد مرعي 1991. /.

وثمة وثائق تتحدث عن وصول العروس إلى الفرات بسلام حيث أقامت في قصر يسمع أدد في ماري. ويبدو أن تحالف آشور مع قطنة كانت غايته الأساسية الوقوف بوجه يمحاض. ولتبيان أهمية قطنة كمحطة عبور تجاري أيضاً ، فإن حركة التجارة آنذاك كانت تمر عبر طريق قطنة .ماري. بحيث كانت البضائع والسلع تأتي من شمال فلسطين وجبيل وغيرها ، مثل الأخشاب والخيول وتنقل إلى الفرات عبر قطنة ومن هناك إلى شمالي الرافدين. ⊗ " وفي عصر شمشي أدد ، قسمت الدولة إلى وحدات إدارية / مقاطعات وولايات / ، على رأس كل منها حاكم يساعده عدد من الموظفين ، وتولى الملك حكم العاصمة والإدارة المركزية ولم يستقر في عاصمته آشور ، بل كان كثير التنقل بين دجلة والخابور ، وتشير المعطيات إلى أنه جنّد البدو الخانيين في جيشه. ".[18]

وثمة نقش يعود لهذا الملك يذكر إقامة نصب في " أرض لابان " على ساحل " البحر العظيم ". ويعتقد هورست كلينغل أن هذا ربما يشير إلى وصول هذا الملك بجيشه إلى لبنان. وإن الطريق الأقصر بين أعالي الرافدين إلى هذه الجبال لا يمكن إلا أن يَعبُر الصحراء الشامية / ولا سيما قطنة /.[19] في حين يشكك عيد مرعي في حصول هذا وأن نفوذه لم يتعدّ منطقة ماري / عيد مرعي 1991 /. وثمة وثائق تتحدث عن تشكيل كل من شمشي أدد / آشور / ويسمع أدد / ماري / وإشخي أدد / قطنة / ، والامارات الشمالية / كركميش .أورشوم .خارشوم / اتحاداً ضد سومو إبوخ ، ملك يمحاض.

ويبدو أن الصراع بين مملكة آشور ومملكة يمحاض كان مستمراً / دون حصول معارك كبرى / بقدر ما كان مماحكات وغارات في المناطق الحدودية بين المملكتين ولا سيما في أعالي الرافدين. واستمر هذا الصراع في عهد ياريم ليم. أما خطوط التجارة في هذه الفترة بحسب الوثائق الآشورية في ماري فتبّين وجود ثلاث طرق من نهر الفرات إلى قطنة: الأول وهو الأبعد عن ماري ، حيث يتبع حوض الفرات الأعلى ثم يتوجه إلى تدمر فقطنة ، أو الرصافة ثم السعن .السلمية .قطنة. وثمة خط أوسط وخط أقرب إلى ماري.[20]

والذي يبدو من الوثائق الآشورية في ماري أن زواج يسمع أدد بابنة ملك قطنة ، كان يشوبه بعض المشاكل والخلافات ، فبالاضافة إلى كون يسمع أدد ضعيفاً كحاكم من الناحية الشخصية والقيادية حيث ورد في إحدى رسائل أبيه إليه: إلى متى يجب أن ندللك ؟ هل أنت صغير ؟ ألست رجلاً؟ متى تستطيع أن تدير بيتك / في إشارة إلى ماري / بشكل صحيح ؟ ألا ترى أخاك الذي يقود جيشاً كبيراً ؟ هكذا يجب عليك أن تدير بيتك وقصرك "[21] والذي يبدو من رسائل شمشي أدد هذه ، أن الملك يمتلك عقلاً استراتيجياً وذهنية متوقدة ، تدرك أبعاد وأخطار الحاضر والمستقبل وهذا ما يتبدى في رسالة أخرى إلى يسمع أدد حيث يقول: "حقق أخوك انتصاراً على أحد القادة ، وتجلس أنت بين النساء ، ولكن إن ذهبتَ الآن مع فرق من الجيش إلى قطنة ، كن رجلاً واصنع لنفسك اسماً كبيراً كما صنع أخوك لنفسه اسماً كبيراً".[22]

وحين أحس شمشي أدد أن ابنه هذا ميّال إلى اللهو والنساء بما أثّر على زواجه ، وبالتالي على مصالح مملكة آشور عبر توّتر العلاقة مع قطنة / المهمة استراتيجياً لأمن المملكة الآشورية وخطوطها التجارية ، والوقوف في وجه مملكة يمحاض / لذا فقد سطر رسالة لابنه حيث ربما وصله خبر أن يسمع أدد يريد ابعاد زوجته عن القصر إلى البادية / جاء فيها: " ألم يسمح الملوك السابقون لنسائهم بالعيش بالقصور ؟ أما أنت فترغب في أن تُسكِنَ ابنة اشخي أدد في البادية ، وسيسمع والدها بالأمر وسوف لن يرتاح قلبه لذلك. وهذا لا يجوز أبداً وهناك غرف كثيرة في قصر النخيل ، يجب أن تختار لها غرفة من بينها وأن يُسمح لها بالسكن فيها .. أما في البادية فلا تدعها تسكن مطلقاً ".[23] كما نقرأ توبيخاً قاسياً لابنه حيث يقول له: " أنت طفل ولست رجلاً ، ألا تملك لحية على وجنتيك ".

والجدير ذكره هنا ، هو أن شمشي أدد في رسالته إلى يسمع أدد بشأن زوجته من ابنة ملك قطنة أبدى سخاءه في تقديم مهر لهذا الزواج حيث تذكر الوثيقة / الرسالة / أنه خصص مهراً قدره " خمس تالنتات / حوالي 145كغ من الفضة / و100 ثوب ".[24] وتدل وثائق ماري في فترة الفاعلية الآشورية على مبلغ العلاقات بين قطنة وماري ⊗ ، " فقد كان كلا الطرفين بحاجة إلى الآخر ، فموقع قطنة المتميز يفيد سياسة شمشي أدد وحرصه ألا يعلو شأن ملوك يمحاض /حلب ، الذين آووا زمري ليم الفار من ماري ، ويحدّ من طموحهم لإعادة زمري ليم إلى العرش ، ومدّ نفوذهم إلى المناطق الشرقية.

لمواقع كانت على خط التجارة بين قطنة والمتوسط ، وأهم تلك المجموعات هي الأولى التي تشمل ثلاثة مواقع رئيسة يتمحور حولها الاستيطان في سهل عكار وهي تل الكزل الذي يقع في النصف الشمالي من السهل ، وتل عرقة في النصف الجنوبي وتل جاموس عند الحدود الشرقية.

ويشير الباحث إلى أن هذه التلال كانت مسكونة بكثافة في النصف الأول من الألف الثاني ق.م ، ويلاحظ أن المسافة التي تفصل هذه المواقع عن بعضها البعض شبه متساوية وتصل إلى حوالي 20 كيلومتراً.

ويستنتج الباحث أن أماكن تواجد هذه المواقع مدروس حتى تكون كمحطات تجارية رئيسية تتوزع خلالها الطرق علة النحو التالي:

.اعتباراً من تل الكزل نحو تل سيانو ورأس شمرا.

.اعتباراً من تل عرقة نحو جبيل.

.اعتباراً من تل جاموس نحو سورية الداخلية ثم تدمر وماري.

وفي مجال الخط التجاري بين قطنة وجبيل ، توصل الباحث إلى أن أغلب المحطات الرئيسية التي عثر عليها تقع أيضاً على مسافة شبه ثابتة وتتراوح بين 18 .20 كيلومتراً وهي كالتالي:

قطنة .قلعة حمص .تل النبي مند .سهل البقيعة .تل جاموس .تل عرقة .أردة . البترون .جبيل.

انظر .وثائق الآثار السورية 2002 .وزارة الثقافة السورية.

⊗ يشير د. فيصل عبد الله إلى أن الحصان ظهر لأول مرة في نصوص ماري في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، ويبدو وأن ثمة اهتماماً في ماري وأوغاريت وقطنة وآشور بالحصان ، وفي ماري كان سعر الحصان أغلى من ثمن المرأة ويعادل مثقالين من الفضة أي حوالي 17 غ من الفضة. انظر فيصل عبد الله . الأرض والإنسان في آلالاخ في القرن 18 .15 ق.م .دراسات تاريخية .35 .36 .1990 . دمشق.

⊗ تذكر نصوص ماري أن موسم جفاف شديد حلّ على ماري فطلب يسمع أدد من إشخي أدد حاكم قطنة أن يسمح لقطعان مواشي ماري بالرعي في أراضي قطنة.

وبالمقابل كانت قوة شمشي أدد المتعاظمة واتساع امبراطوريته تغري حكام قطنة بالاحتماء به والتحالف معه ، لضمان الحماية من الخطر اليمحاضي على مملكتهم الصغيرة. وتشير وثائق ماري إلى مرابطة قوات عسكرية من ماري والمناطق المحيطة لها في قطنة بهدف حمايتها من أي خطر خارجي مباغت "[25] كما أن قوات ماري تحت إمرة يسمع أدد تمركزت في إيمار. / أبو عساف 1990 /. وتقدم المعلومات الوثائقية على أن حدود علاقات المملكة الآشورية وصلت حتىالديلمون في الخليج العربي. وبشكل عام فقد شملت المملكة الآشورية في عهد شمشي أدد معظم الجزيرة الشامية وحتى سفوح زاغروس في الشرق وطوروس في الشمال. ويبدو أن جميع الأراضي من ماري وحتى أعالي الجزيرة الشامية وشرقها قسمت بين ابني شمشي أدد.

أيضاً يمكننا حسب الوثائق التي قدمتها كشوفات ماري الأثرية ، أن نشير إلى أن يسمع أدد حاكم ماري قد حكم أيضاً توتول ويبدو أنه كان يريد أن يضم شوباط انليل إلى إدارته ، حيث تشير احدى الوثائق وهي عبارة عن رسالة من يسمع أدد من ماري إلى أبيه شمشي أدد يذكر فيها أن نهر البليخ يجب أن تنصب مياهه بكاملها لسقاية أراضي مدينة توتول ، ويشير د. فيصل عبد الله إلى أن ثمة نزاعاً كان قائماً بين يسمع أدد في ماري وقائد عسكري مقيم في شوباط انليل ، حيث أن القائد العسكري أمر بسد النهر عن توتول لاستخدامها في سقاية مناطقه ، ويبدو وأنه تمَّ طرد عمال ماري من منطقة صردا الواقعة قرب توتول.

وفيما يبدو من تحليل الرسالة هذه أن يسمع أدد كان يرغب في مدّ نفوذه إلى أعالي الفرات شمالاً.[26] والذي يبدو أن شوباط انليل كانت موقعاً مهماً للملك شمشي أدد من أجل إدارة أحوال مملكته لا سيما في جانبها الذي يعنى بالجزيرة الشامية والفرات الأوسط ، ولكن يستشف من الوثائق أن يسمع أدد سعى إلى الحاقها بنفوذه ، حيث ثمة رسالة من اشمي دجن إلى أخيه يسمع أدد يدور محتواها حول هذا الأمر حيث يقول: "أخاف أن تقول أن اشمي دجن هو ضد الحاق مدينة شوباط انليل بمنطقة ماري ، فماذا أفعل أنا بها ؟ شوباط انليل بعيدة عن المدينة 20 مرة/ يبدو أنه يشير إلى مدينته ايكالاتوم/ وبالعكس هي الواقعة في جهتك قرب منطقة ماري ".[27]

وقد ذكرنا سابقاً ، أن يسمع أدد لم يكن هذا الحاكم الكفوء للقيادة والإدارة ، وثمة وثائق /رسائل تحدثت عن هذا الأمر ، وثمة رسالة تعنيف قوية تلقاها هذا الحاكم من أبيه الملك تقول: "لقد أعطيتك هذه المدينة ، فإن كنت قادراً على إدارتها فافعل ، وإن لم تستطع فهناك الكثير من الناس المؤهلين القادرين على إدارتها ، وفي النهاية سأعطيها لمن يستطيع إدارتها. هل تتصور أن أترك بيتي وآتي كي أدير بيتك ؟ الرجل الحقيقي هو من ينظم بيته بنفسه"[28]

والجدير ذكره هنا ، هو أن المسافة الفاصلة بين قطنة وماري تبلغ حوالي 350 كم ، ومنذ ذلك الحين كان لتدمر وسط البادية الشامية دور كمحطة تجارية كونها تقع في منتصف المسافة بين ماري وقطنة. وتشير الدراسات أن المسافة بين قطنة وماري مروراً بتدمر كانت تقطعها القوافل بحدود عشرة أيام.[29] ويبدو أن الفاعلية التجارية في فترة وقوع ماري تحت فاعلية مملكة آشور ، لا تشذ عما قبلها ، ولكننا هنا أمام تفعيل أكبر لخطوط التجارة عبر قطنة/ الحليف الاستراتيجي لآشور/. فالوثائق تتحدث " عن أخشاب وردت من قطنة إلى ماري ، مرسلة إلى آشور حيث أُودعت مؤقتاً في مدينة صبروم الواقعة بين ماري وترقا ، أما الأخشاب فكانت خشب الأرز والسرو والآس ويبدو وأنه تم استيرادها من مناطق الساحل المشرقي لصالح قطنة "[30]

كما أن تجارة الخيول " كانت رائجة في قطنة حيث أن حاكم ايكالاتوم إشمي دجن أرسل إلى إشخي أدد حاكم قطنة ، رسالة يرجوه فيها إرسال حصانين ، ويبدو أنه بعد وصول الحصانين إلى إشمي دجن وإرسال ثمنها إلى قطنة ، أن ملك قطنة انزعج من المبلغ المرسل حيث أرسل لإشمي دجن رسالة قال فيها: "ليس هذا الكلام للقول ، ولكن دعني أَبُحْ به وأروّح عن قلبي. أنت ملك عظيم ، لقد طلبت مني حصانين وقد أرسلتهما إليك ، وها أنت ترسل مقابلهما 20 مينا من القصدير .. ألم تلح عليّ في الطلب دون مساومة ؟ ألم تستلمهما دون تردد ؟ ثم ترسل إليّ هذه الكمية الزهيدة من القصدير .. طبعاً مَرِضَ قلبي ، فثمنهما عندنا هو 660 شقل فضة وأنت ترسل 20 مينا قصدير ... أنت لست ملكاً عظيماً ...لماذا فعلت ذلك ؟"[31] وثمة رسالة من شمشي أدد إلى يسمع أدد يطلب منه تقسيم حمولة الأخشاب إلى ثلاثة ، واحدة لمدينة نينوى ، والثانية لمدينة ايكالاتوم والثالثة لشوباط انليل. / اندره فينه .الحوليات 34 /.

أيضاً نقرأ وثيقة أخرى ، وهي عبارة عن رسالة من حاكم قطنة إشخي أدد إلى يسمع أدد حاكم ماري تدور حول فقدان قطعان من الماشية حيث تقول الرسالة: "فيما يتعلق بالقطعان ، فلم أتوقف عن الكتابة إليك منذ أيام عديدة ، ولم يتوقف جماعتك عن الإجابة ، بما يلي: أجل ستطلع القطعان ، ولكن القطعان لم تطلع ، والآن أقسمت بالإله من جديد ، بل بعينيّ ما دامتا حيتين ، فلم أعد أثق بهذا ، أما الآن فاطلع أنت على القطعان ، واطلع معك ابنتي / زوجة يسمع أدد / ".[32]

وأبانت الوثائق أيضاً عن فعالية تجارية لماري مع الديلمون في البحرين ، حيث أن هناك وثيقة تتحدث عن وصول رسل من الديلمون إلى ماري وتسلّم بعضهم في شوباط انليل هدايا بأمر من الملك شمشي أدد ، وقد اشتملت الهدايا على زيت السمسم وصناديق خشبية وصنادل. وثمة وثيقة أخرى عبارة عن رسالة أرسلها يسمع أدد إلى حمورابي بابل يذكر فيها المصاعب التي واجهها في إرسال بعثة إلى الديلمون. ⊗ وفي اتجاه تجاري آخر ، نجد أن طريق قطنة .ماري كان يشهد انتقال للبضائع القادمة من شمال فلسطين ، ومناطق أخرى على الساحل المشرقي/ أخشاب وخيول / حيث تنقل عبر الفرات إلى أعالي الرافدين.

وتشير الوثائق إلى وجود مركز تجاري لماري في قطنة. وكانت قطنة وماري ويمحاض تتقاسم المراعي الواقعة شمالي تدمر.⊗⊗ ومن طرائف الوثائق آنذاك ، التي تتحدث عن هروب طبيب وخمسة طباخين من قصر شمشي أدد ولجوئهم إلى ماري ، وقد سبق أن هرب عدد من الموظفين الكبار / الجرسيتو / ويشرح شمشي أدد في الرسالة

⊗ مملكة بابل ، أسسها سومو أبوم 1894 .1881 ق.م. ولم تمتلك وتحقق فاعليتها التاريخية إلا في عهد ملكها حمورابي 1792 .1750 ق.م. وتشير المعطيات إلى علاقة جيدة بين حمورابي وشمشي أدد ، كون أن الفاعلية البابلية لم تشكل خطراً حتى الان على الفاعلية الآشورية بل كانت آشور تسود بابل دون أن تتبع الثانية للأولى.

⊗⊗ في دلالة على عمق العلاقات المتأزمة بين مملكة آشور ومملكة يمحاض ، تبين وثيقة من محفوظات ماري ، أن حاكمها يسمع أدد ، أراد السفر إلى قطنة من ماري ، وقد تحاشى المرور بحلب وأخذ طريقه عبر تدمر إلى قطنة.

سبب هروبهم إلى ماري وذلك بسبب وجود حانة للتسلية واللهو في ماري.[33]

كما تتحدث وثائق تلك الفترة على وجود إحصاء للسكان في ماري بالاضافة إلى ما يعنيه من جبيَ للضرائب. ونختتم هذه الفترة من وقوع ماري تحت الفاعلية الآشورية برسالة لشمشي أدد إلى ابنه يسمع أدد ، حيث أننا أمام نسق من الرسائل التي تُختتم بَمَثلٍ ، وهذا ما زال دارجاً إلى يومنا هذا ، ويقول شمشي أدد: "كل شأنك هو أن تُبتلى بخدع دائماً ، وأن تظل تخطط لهزيمة عدو دائماً ، ولكن العدو أيضاً يجرّب خدعاً ويناورك دائماً. متى ستكون كالأبطال المصارعين وتتمكن .ولو لمرة واحدة .من تضليل أحدهم ؟ أتمنى أن تتفادى حدوث ذلك نفسه معك ، فلا ينطبق عليك المثل القائل: الكلبة من عجلتها ، ولدت جراء عمياناً ".[34]

وفي 1782 ق.م ، يموت شمشي أدد ، ويخلفه ابنه إشمي دجن الذي لم يستطع المحافظة على قوة المملكة الآشورية ، وإحدى الوثائق تشير في رسالة من إشمي دجن إلى أخيه يسمع أدد ما يلي: " مملكتك تبقى مملكتك "[35]⊗ ما يعني أن يسمع أدد بقي حاكماً على ماري ، فهو إن كان ضعيفاً أثناء وجود أباه في حكم المملكة الآشورية ، فإنه الآن أضعف من أن يتحمل معطيات ما بعد شمشي أدد ، وهذا ما حدث حيث استطاع زمري ليم من أن يعود الاعتلاء عرش ماري بمساعدة خاله ملك يمحاض / ياريم ليم / والذي سوف يصبح والد زوجته أيضاً. ويبدو أن إشمي دجن قدّم المساعدة لأخيه لئلا يسقط حكمه في ماري ولكنه لم يفلح ، وهكذا تعود ماري إلى مملكتها بعد حوالي خمسة عشر عاماً من الإدارة الآشورية ، في حين أن ملك أشنونا إبال بيل الثاني ، يقود هجوماً على المملكة الآشورية من الجنوب حيث يستولي على أجزاء منها ، كما خسر إشمي دجن مناطق عديدة من أعالي الجناح الرافدي ، ⊗ لتعود آشور إلى مدنية فاقدة لفاعليتها التاريخية وبحجم دويلة صغيرة.

"وتشير وثائق ماري الإدارية إلى أن انتقال السلطة إلى زمري ليم ، وزوال سلطة يسمع أدد عن ماري ، لم يحدث في ظروف حرب تدميرية ، حيث نجد نساء يسمع أدد يعشن في كنف زمري ليم ، وكذلك الجهاز الإداري ما عدا تبديل بعض الموظفين. وبعد استلام زمري ليم الحكم في ماري ، آلت جميع الأراضي التي سيطر شمشي أدد وابناه عليها إلى زمري ليم ، وربما كان لياريم ليم ملك يمحاض حظ في ذلك ".[36]

استنتاجات حول فترة ماري تحت الفاعلية الآشورية

بعد استعراضنا لوقائع الحياة في مدينة ماري في فترة سيادة الفاعلية الآشورية عليها ، في مختلف جوانبها السياسية والعسكرية والاقتصادية والتجارية ، نصل إلى عدة استنتاجات تُعنى بهذه الفترة:

أولاً: من استعراض مختلف الفاعليات في مدينة ماري ، لا نلحظ أن ثمة افتراقاً أو قطيعة بين ما قبل الفاعلية الآشورية وما بعدها ، بل ثمة استمرارية في حركة المدينة بما يوحي أن الأسرة العمورية والتي منها شمشي أدد ، لابدّ أنها تنتمي إلى قرابة للعائلة العمورية لزمري ليم. ⊗ وعلى هذا فالذي يبدو أن الصراع كان بين أسر حاكمة وليس بين شعوب ، فالشعب واحد إن كان في آشور أو ماري أو بابل في هذه الفترة. وكنا ذكرنا أن إلا كبكابو / والد شمشي أدد / كان يحكم ترقا ، وأن يجيد ليم قد طرده وضمّ ترقا إلى فاعلية ماري ، ما يعني أن الصراع هو بين حكّام ينتمون إلى أرومة واحدة ، وبالتالي ليس ثمة قطيعة إثنية أو اقتصادية أو اجتماعية أو روحية.

ثانياً: نلحظ أيضاً أن المجال الجغرافي في المشرق العربي آنذاك ، كان مطواعاً لحركة التاريخ والمجتمع في بعدها السياسي. فإن طُرد إلا كبكابو من ترقا ، فإن نهر الفرات لم يكن عائقاً أمام ذهابه إلى مدينة بابل ، ثمَّ ظهور المعالم القيادية لدى ابنه شمشي أدد ، الذي سيطر على مدينة آشور / وقبلاً ايكالاتوم / ومن ثم سوف تكتمل فاعلية مدنية آشور التاريخية ، لتُضفي وشاحاً عمورياً جديداً على المشرق العربي. وأيضاً ، ما يعزز فكرتنا هذه ، هو أن شمشي أدد ، وكونه يمتلك عقلاً استراتيجياً ، وجد أن الجناح الشامي لا يمكن أن يسيطر على حركته إن لم يكن له مربط فرس فيه ، فكانت عاصمته الثانية في شوباط انليل/تل ليلان. ما يؤكد احتواء حركة التاريخ للجغرافيا المشرقية بشكل متطابق.

ثالثاً: في ما يشي بطغيان الذهنية القبلية والعشائرية على الأسر الحاكمة آنذاك ، نلاحظ أن للعامل الوراثي دوراً أساسياً في النظام السياسي. فإن يكن يسمع أدد حاكم ماري ضعيفاً وغير كفٍ للقيادة ولحكم المدنية ، فإن كونه ابن الملك قمين بأن يجعله حاكماً ، وما يدل على طغيان عامل الدم والانتماء العائلي القبلي على سواه من العوامل. وهذا ما ينسحب على مجمل مدن المشرق العربي ، إن كان في ماري عبر أسرة يجيد ليم ، أو حلب عبر سومو ابوخ وسلالته أو إبلا ... وهكذا.

رابعاً: تمنحنا حركة التاريخ آنذاك أن صراع المصالح بين المدن والممالك ، كان طاغياً لدرجة أنه يمكن أن يؤثر على مصالح تلك المدن أو الممالك. فخطوط التجارة مثلاً، ونتيجة لطبيعة الصراعات تلك كانت تتغير تبعاً لدرجة الطمأنينة أو الخطورة وعلى هذا فإن طرق التجارة المحلية أو الدولية للمملكة الآشورية كانت تصطدم بمناوئة من مملكة يمحاض ، كما أن مملكة يمحاض كانت تتأثر طرقها من العداء الآشوري لها. وعلى هذا فقد تبعت الخطوط التجارية أحوال العلاقات بين المدن أو الممالك ، ومنها ما أثرَّ سلباً في حين كان يؤثر إيجاباً على مراكز أخرى كما حال مدينة قطنة التي استفادت في هذه المرحلة من العداء الآشوري . اليمحاضي. وبذا نفهم مثلاً أهمية وادي الخابور بالنسبة للمملكة الآشورية حيث كان طريقاً مهماً للمواصلات والتجارة بين ماري وآشور.

خامساً: بشكل عام ، تشبه فترة الفاعلية الآشورية هذه ، فترة الفاعلية الأكادية حين سيطرت على مملكة ماري ، فكلتا الفاعليتين جرّدتْ مدينة ماري من مملكتها وأعادتها إلى حجمها الاعتيادي ، مع الملاحظة أن مدينة ماري تحت الفاعلية الآشورية كانت أكثر حيوية وفعلاً من الفترة الأكادية وقاربت أن تكون مملكة.

⊗ ثمة وثيقة/رسالة من إشمي دجن ملك آشور / بعد وفاة أبيه / إلى أخيه يسمع أدد ، يطلب فيها إرسال جيش يساعده على تمرد في دولته. كما طلب منه ارسال سفن مشحونة نصفها بالحبوب والدقيق والبيرة ليضلل الجواسيس / عبر الفرات /. قاسم طوير .حوليات 34 .

⊗تشير المعطيات إلى أن زمري ليم تمكّن بمساعدة من يمحاض وأشنونا وبابل من طرد إشمي دجن من بلاد الرافدين العليا.

⊗ تعتبر مدينة ترقا مسقط رأس شمشي أدد ، كما أن أسرة يجيد ليم ملك ماري العموري الأول يحتمل أن أساسها من مدينة ترقا أيضاً.

سادساً: تشهد فترة الفاعلية الآشورية ، على أن الملك شمشي أدد ، كان رجل دولة من الطراز الأول ، وبرأينا أنه لا يشذ عن نمط ملوك المشرق العربي سواء في الألف الثالث ، مثل لوغال زاجيزي ، أو شاروكين الأكادي. فهو صاحب منهج ورؤيا ويمتلك ذهنية استراتيجية وسياسية جعلته في مصاف القادة التاريخيين. وهذا ما سوف نلحظه في شخصية حمورابي البابلي أيضاً ، وزمري ليم ملك ماري. والذي يبدو بشكل عام أن ما كان ينقص كل هؤلاء ، هو امتلاكهم لرؤية توحيدية في المصالح ، تحتم اتحادهم واتحاد مدنهم وممالكهم. ولكن الحاصل هو أن المصالح المدينية طغت حتى على احتمالات الاتحاد ، مما أضعف المشرق العربي على مدى تاريخه القديم. ولعل تحقيق مصالح المدن آنذاك عبر القوة المادية لم يكن ليقدّم أو يؤخّر ، طالما أن البنية المجتمعية ، والروحية لم تكن بمثل معالم القوة المادية ، لهذا نجد فور ضعف الفاعلية التاريخية لمملكة ما ، أن المشرق العربي يضطرب وتنفك أواصره ، مما يدفع القوى المحيطة للانقضاض عليه. والذي كان ينبغي ، هو أن تسير القوة المادية إلى جانب القوة الروحية . المجتمعية في دورة حياة واحدة مفروضة بوحدة المصالح والانتماء وليس بقوة السلاح.

سابعاً: لعل ما يضيء أكثر على طريقة تفكير الملك شمشي أدد ، هو تلك الرسائل التي أتينا على ذكرها ، ما تعطي دلالة على منهج تفكير رجل دولة يهتم بكل شاردة وواردة وصغيرة وكبيرة في أحوال مملكته ولعل هذا يتبدى بشكل واضح في رسائله إلى ابنه يسمع أدد / حاكم ماري /. ومن طرائف تلك الرسائل ، تلك الرسالة التي يطلب فيها شمشي أدد من ابنه يسمع أدد ، أن يتمّ تعليم بنات ملك ماري المقتول يخدون ليم ، الموسيقا ، وحيث أنه تمّت التوصية على خمس قيثارات ، ولكن حصل تباطؤ في صنعها ، ما استوجب تنبيه المسؤول عن ذلك.⊗

الهوامش

(١) جورجيو بوتشيلاتي. ترقا. أضواء جديدة على تاريخ وآثار بلاد الشام. 1989. ترجمة قاسم طوير. دمشق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) كاي كولماير. الآثار السورية. 1982.
(٤) المرجع السابق.
(٥) المرجع السابق.
(٦) جان ماري دوران. ل. باشيلو. تل محمد دياب. المساهمة الفرنسية. مرجع سابق.
(٧) جان كلود مارجرون: محاضرة حول ماري. C.C.F. 1991. دمشق. مرجع سابق
(٨) علي أبو عساف . ايمار في حوض الفرات الأوسط . دراسة غير منشورة.
(٩) مارتا لوتشياني . حوض الخابور الأدنى في عصر البرونز الوسيط . وثائق الآثار السورية 2002.
(١٠) الفرد هالدار. العموريون. مرجع سابق.
(١١) المرجع السابق.
(١٢) علي أبو عساف. أثار الممالك القديمة. مرجع سابق.
(١٣) هورست كلينغل. تاريخ سورية السياسي. مرجع سابق.
(١٤) عيد مرعي . يخدون ليم ملك ماري . دراسات تاريخية 27 . 28 /1987.
(١٥) هورست كلينغل. مرجع سابق.
(١٦) علم الدين أبو عاصي . اقتصاد مملكة ماري . وزارة الثقافة . سورية 2002.
(١٧) محمد حرب فرزات. عيد مرعي. دول وحضارات. مرجع سابق.
(١٨) هورست كلينغل. مرجع سابق.
(١٩) فيصل عبد الله. قراءة في خمسة مجلدات في ماري. مرجع سابق 37 .38. دراسات تاريخية.
(٢٠) عيد مرعي. تاريخ بلاد الرافدين. دار الأبجدية. دمشق 1991.
(٢١) المرجع السابق.
(٢٢) المرجع السابق.
(٢٣) فاروق اسماعيل . قطنة في وثائق العهد البابلي القديم . الحوليات الأثرية السورية 42. 1996.
(٢٤) المرجع السابق.
(٢٥) فيصل عبد الله. إبلا أقدم مثال نمط زراعي متقدم. دراسات تاريخية 43. 44. 1992.
(٢٦) المرجع السابق.
(٢٧) المرجع السابق.
(٢٨) فيصل عبد الله . تدمر في الوسط الاقتصادي . السياسي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. الحوليات الأثرية السورية 42 / 1996.
(٢٩) فاروق اسماعيل. مرجع سابق.
(٣٠) المرجع السابق.
(٣١) فيصل عبد الله. المرجع السابق.
(٣٢) الفرد هالدار. العموريون. مرجع سابق.
(٣٣) فاروق اسماعيل . ماري وشبت انليل . الوثائق الأثرية السورية . 2002 دمشق.
(٣٤) فيصل عبد الله. إبلا وماري. مرجع سابق.
(٣٥) فيصل عبد الله. المرجع السابق.

⊗ انظر. ماري اندره بارو. ت. رباح نفاخ. وزارة الثقافة. سورية 1976.

أحدث إصدارات
الدكتور بشار خليف

اسم الكتاب: نشوء فكرة الألوهة: مقاربات تاريخية — فكرية
المؤلف: د. بشار خليف
مراجعة وتدقيق: د. محمد محفل
الناشر: دار الأهالي (دمشق).
الطبعة: الأولى ٢٠١١